الحديث ذو شجون

للدكتور زكي مبارك

بين القاهرة وبغداد — فى رياض الزمالك — سهرة روحية — لمحة وجدانية — طبائع الأرض المصرية والعراقية — بين سنترس ولبنان — أشجاع وأغاريد — منظر طريف — ماذا دها القمر — فائدة لغوية وتاريخية — مرورة مصرية

بين القاهرة وبغداد

سنحت فرصة ثمينة ، وما كنت أنتظر أن تسنح ، فقد ألفنا بُخل الأيام وشُحّ الليالى ، ورُضنا النفس على اليأس من كرم الزمان

وتلك الفرصة هى لقاء الأستاذ طه الراوى فى القاهرة بعد فراق طال ثم طال ، وبعد شوق لا يصوره القلم ولو جال وصال

قال الأستاذ الراوى عند التلاق : ماذا أصنع معك ؟ وكيف أجازيك ؟ أنت تعلن شوقك إلى إخوانك فى مجلة الرسالة فيصل صوتك إلى الشرق والغرب ، وأنا أضمر شوقى فلا يصل إليك منه قَبَس ، ولو أنى عبّرت عما فى نفسى لقلت إنى لم أجد أحداً غيرك يفوقنى فى الوفاء

كذلك كان الحديث عند لقاء الأستاذ طه الراوى صديق مصر الحميم ، والرجل الذى لا ينساه من يراه ، ولو طال البِعاد

تلاقينا وتسامرنا ، وقال وقلت : أين الأستاذ الزيات ليتمّ أُنس الحديث ؟ فقد سأل الأستاذ الراوى مرات عن الأستاذ الزيات ، وكان يشتهى أن يراه ليتحدث معه فى شؤون من شواجر الأدب القديم والجديد ، ورجانى أن أبلغه التحية إن لم يستطع رؤيته قبل الرجوع إلى بغداد .

فى رياض الزمالك

عرفت من المفوضية العراقية أن الأستاذ الراوى يقيم بفندق الكنتنتال ، فطلبته بالهتّاف ، فردّ صوتٌ محبوب هو صوت السيد خالد الشوربجى ، فعجبت من هذه المصادفة الغريبة ، وسألته عن الأستاذ الراوى فقال : تجده بكلية البنات فى الزمالك ، ثم قال : وين الأستاذ الزيات ؟ فقلت : تجده فى كلية الزراعة على شاطئ بحر شبين !

مضيت فى العصرية إلى الزمالك ، فكيف رأيت الزمالك ؟

إنى لمفتون بتلك البقعة التى يطوّقها النيل من أربع جوانب ، وإنى لمفتون بما فيها من قصور وبساتين ، وإنها لروضة من أنضر الرياض

أين الشاعر الذى يصوّر جمال الزمالك ؟

وأين الروح الذى يدرك معانى تلك الجزيرة الخضراء ؟

لن ينقضى فتونى بتلك الروضة المُهندَمة بأروع وأظرف ما تجود به الفنون ، فالزمالك تُرى وكأنها صُبَّت مرة واحدة فى لحظة من لحظات الصفاء

لا تجد بيتاً يُبنَى ولا بيتاً يُهدَم ، ولا ترى إلا سَبيكة مقدودة من ضمير الحُسن الأصيل

هذه كلية البنات بشارع محمد أنيس ، وهذا بابها العالى ، فما أسعد بلداً يكون لبناته حظ التعلم فى مثل هذا المكان البهيج !

وأخطو خطوة فأجد الأستاذ الراوى فى انتظارى ، وأجد معه الأستاذ عبد الجبار الجلبى ، وأجد وجوهاً عراقية فى سُمرة النيل عند الوفاء

وأقول بعد التحية : جئت أدعوكم لزيارة سنتريس ، فما يجوز لمن يزور مصر أن يغفل زيارة سنتريس

فيقول السيد عبد الجبار الجلبى وهو يبتسم : إن مَثَل من يزور مصر ولا يزور سنتريس مَثَل من حَجّ ولم يعتمر ، وقد يكون حاله حال من اعتمر ولم يحج ، فلا بد من زيارة سنتريس

سهرة روحية

وبعد لحظات يتفرق الجمع ، لأن لجمهور الحاضرين مآرب من رؤية القاهرة بالليل ، وأنظر فأرى الأستاذ طه الراوى سيبقى بلا رفيق ، فأقرر البقاء لمسامرته إلى أن يعود الرفاق

قلت : أيسمح سعادة الأستاذ أن نخرج فنرتاض على ضفاف النيل ؟

فقال : أنت النيل ، ثم أنشد قول المتنبى :

مِن عَبيدى إن عشت لى ألف كافو
ر ولى من نداكَ ريفٌ ونيلُ

وانطلق فقص قصة المتنبي بعد أن رحل عن مصر ، قصها بصورة خلابة كأنه كان رفيق المتنبي حين فارق مصر في ليلة عيد

وخلاصة القصة أن المتنبي كان يعلق آماله على « فاتك » وكان فاتك يريد السيطرة على الصعيد ، فبث كافور ألوف العيون ليعرف من أحواله كل شيء ، وكان المتنبي يعرف هذه الحقيقة ، فكان يخرج بحجة الحرص على ترويض حصانه ليلقى فاتكاً في مكان مجهول ، ثم هلك فاتك فلم يبق للمتنبي غير الرحيل ، ولكن إلى أين ؟

رحل إلى الكوفة ، وهي وطنه ، ولعله كان فيها من الفقراء ، فأرسل إليه سيف الدولة هدية يستعين بها على العيش ، فرد المتنبي بقصيدة منها هذا البيت :

مِن عَبيدي إن عشت لي ألف كافو
رٍ ولي من ندالك ريفٌ ونيلُ

ومضى الحديث في شجون مصرية وعراقية ، فكان من ذلك دليل جديد على الثقة الموصولة بيني وبين هذا الرجل النبيل

— إحكي ، إحكي

وماذا أحكي ؟

أنا تعبت من الحكي ، فاحكي أنت

— ميعاد الحكي في سنتريس

وخرجت أبحث عن سيارة بعد انتصاف الليل وأنا في نشوة روحية قليلة الأمثال

رياض الزمالك وأحاديث الراوي في ليلة واحدة ؟ تبارك من جعل هذه الحظوظ من نصيبي في أوقات قل فيها الظفر بأطايب الحياة .

طعنة وجرانية

وقفنا على جسر الرّباح المنوفي بالقناطر الخيرية لحظات ، فقلت للأستاذ الراوي : ما رأيك في أن ننزل فنقطع هذا النهر سابحين إلى أن نلقى الاستاذ الزيات ؟

— إيش لون ؟

— هذا النهر يسمى هنا بالرياح المنوفي ، وبعد قنطرة النعناعية يسمى بحر سنتريس ، وبعد قنطرة القَرينَيْن يسمى بحر شبين ، ومنه تَستقي مزارع الأستاذ الزيات

— أنتم تُسقون من نهر واحد ؟ الآن عرفت السر فيما بينكم من وفاق

— وهناك وشيجة ثانية

— ما هي ؟

— هي ما يوجب العقل من تلطف الشركاء بعضهم مع بعض ، فأنا أستطيع سد هذا النهر بنبابيت سنتريس

— ولا تخاف الحكومة ؟

— الحكومة تركت هذا النهر في حراستنا ، فنحن نملك من أمره كل شيء

— أنتم إذاً على استعداد لإساءة التصرف

— ومع هذا لم نسيء التصرف ، رعايةً لمعنى واحد ، هو البر بالصديق ، ولو كان الزيات عدواً لعاملناه معاملة الأعداء ، هذا مع العلم بأن الزيات صديق مضمون

— ما معنى هذه الكلمة الأخيرة ؟

— إن لها معنى ومعانى ، فالصديق المضمون هو الصديق الذي لا يُخشى تغيره بأي حال ، وإذن يجوز التحيف عليه باطمئنان ، فيكون البر به غاية في الوفاء

— هذا معنى طريف ، ولكنه يحتاج إلى بيان

— بيان ذلك أن من الاصدقاء من ينهاه قلبه وروحه عن مجازاة أصدقائه غدراً بغدر ، وإيذاء بإيذاء . والصديق الذي يكون في مثل هذه الروحانية يلقى من أصدقائه متاعب ومضجرات ؛ فالوفاء بعهده يُعَد أعجوبة في الحياة الأخلاقية ، وأنا أطمع في الظفر بأكبر نصيب من مكارم الأخلاق

— نحن نسمع في مصر كلاماً جديداً

— ولكنه أقل من كلام العراق

— يعجبني تعصبك لأصدقائك ، يا دكتور مبارك

— ولمن أتعصب إذا لم أتعصب لأصدقائي ؟ لم يبق من الكرم غير حفظ العهد ، وكل ما أخشاه أن يكون حظي من هذا المعنى أقل مما أريد . إن الهجوم على العدو لا يحتاج إلى عناء ، لأنه ينبعث عن ثورة تعين على القتال ، أما ملاطفة الصديق فتَصدُر عن عواطف رفيقة لا تساعد على الاستبسال

لو بذلنا في ملاطفة أصدقائنا معشار ما نبذل في محاربة أعدائنا لرضي الله عنا واصطفانا لأشرف الأعمال

الأدب الحق هو أدبك فى معاملة من لا تخاف أن يثور عليك

— وهذا أيضاً كلامٌ جديد

— وهو أيضاً من وحى العراق

— طيَّبَ الله أنفاسك ، يا دكتور مبارك !

طبائع الأرض المصرية والعراقية

— فى حديقة الدار فى سنتريس بَدَتْ الطُّلمبَة أمراً عجبا ، فقد دهش الضيوف العراقيون من أن نستقى الماء بلا بئر ، فقلت إن هذا يتيسّر فى العراق لو أردتموه . فقال الأستاذ طه الراوى : إن البئر فى العراق تكون مياهه غاية فى الرارة إن بَعُد عن الشط ، لأن أرض العراق كثيرة الأملاح

عند ذلك تذكرت عبارة المسيو دى كومنين حين رأى الطلمبة فى سنتريس ، فقد قال إن هذا يمتنع فى الأرض الفرنسية ، وإن لم يذكر الأسباب

وعند ذلك فهمت كيف كانت بغداد مملوءة بالأنهار ، وهى

— القنوات التى كانت تنقل الماء إلى المحلات المختلفة بدار السلام ، فكل مجرى ماء اسمه نهر عند أهل العراق ، ولو كان قناة لا يحتاج عبورها إلى أيسر مجهود ، ومن هنا جاز أن نرى فى كتب التاريخ أن البصرة كان فيها مئات أو ألوف من الأنهار الجاريات

لو سمعت كلام الأستاذ الراوى قبل أن أكتب مقالى عن « عروس النيل » لكان من الممكن أن أضيف إليه توضيحات ، فليكن ما هنا تكميلاً لما هناك

بين سنتريس ولبنان

— قال الأستاذ الراوى : للنسائم هنا مَذاقٌ لا تجد مثله فى لبنان ، فما الذى يمنع من أن تجعلوا بلدكم من بلاد الاصطياف ؟

قلت : إن هواء سنتريس أتعب أهل سنتريس

— وكيف ؟

— لأنه جعلها مَراداً لأصحاب الأذواق ، فهى المُلتقى لأكثر سكان المنوفية ، ومن أجل هذا عمّ فيها الغلاء

أسماع وأغاريد

وعند تناول العشاء سمعنا طيوراً تسجع وتغرّد بأنغام لا يسمع مثلها أهل العراق ، فقال الأستاذ عبد الجبار الجلبى : ما هذه الطيور ؟ فقال السيد عبد المجيد مبارك : هذه جماعة الكروان تَصدَح عند قدوم الليل

وتردد الأستاذ الجلبى فى تصديق ما يسمع ؛ فقال له الأستاذ الراوى : هذه بلابل تَصدح بأنغام أهل سنتريس !

منظر طريف

حين مررنا بحدائق القناطر الخيرية نبهت رفاقى إلى غابة أبى قردان ، وقلت إنه طائر يصادق الفلاح ، فيرافقه فى الحرث والسقى ، ليلتهم ما فى الأرض من ديدان ، ولهذا يحرم صيده بأمر وزارة الزراعة المصرية

قال الأستاذ الراوى : هذا اسمٌ عربىّ ، فالقُراد يُجمع على قِردان كما يجمع الغلام على غِلمان ، ولعل هذا الطائر سُمّى بذلك لأنه يطهّر الأرض من الحشرات

قلت : ومن العجيب أن يكون ملتقى هذه الطيور البيض فى شجرة كريمة بأحد المنازل فى سنتريس ، وكأنها تقول :

من علّم الورقاء أن محلكم حَرَمٌ وأنك موئلٌ للخائف

ماذا رأى القمر ؟

كانت طلعة القمر طلعة بهية ، وكان لألاؤه فوق بحر سنتريس غاية فى البهاء ، فماذا دهاه قبل أن تقترب من قليوب ؟

قال السيد هاشم : القمر مخنوق

فوقفنا جميعاً وتطلّعنا إلى وجه القمر فرأيناه فى حال تُشمت العُذّال !

حتى القمر تنال منه صروف الليالى ؟!

وتسمّع السيد عبد الجبار ما يقول أهل قليوب ليوازن بين أقوالهم وأقوال أهل بغداد ... وتذكرت العبارة المصرية فقلت : « يا بنات الحور ، سيّبوا قرنا ينور »

فقال : إن عبارة أهل بغداد « ياحوتَهْ يامنحوتَهْ ، طلعى قرنا العالى »

وإذن تكون بنات الحور هى التى تخنق القمر فى مصر ، وتكون الحوته المنحوته هى التى تخنقه فى العراق[1]

(١) المنحوته فى لغة أهل العراق هى المنحوسة

قلت : القمر عندنا معشوق تحتجزه الحوريات ، وهو عندكم مأسور بأيدى الحوتات المنحوتات ، عليهن اللعنات !

فقال السيد عبد الجبار : لقد راعنى هدوء الطبيعة المصرية ، ففى كل ماء تنقّ الضفادع بقعقعة مزعجة ، إلا ماء النيل

واستطرد الأستاذ الراوى فقال : أراد صوفىٌّ أن ينظر معشوقته من ثقب الباب فرآها عارية ، ولكنه انزعج حين رأى ضفائرها تحجب عنه جسدها الوهّاج ، فصرخ :

ياحوتة يامنحوتة طلعى قرنا العالى

قلت : وما شأن الصوفى بالأجساد العارية ؟

فأجاب : هل نسيت ما قررته فى كتاب التصوف الإسلامى ؟ ألم تقل إن الحب الحسّىّ قنطرة إلى الحب الروحى ؟ ألم تقل إن الصوفية تبنوا أشعار الماجنين فحوّلوها إلى خطرات وجدانية ؟

فائدة لغوية

قال سعادة الأستاذ الراوى وقد شربنا القازوزة : إن العرب عرفوا القازوزة ، فقلت القازوزة التى نشربها كلمة فرنسية أصلها Gazeuse فما هى فى العربية ؟ فقال : وردت فى قول أحد الشعراء :

أفنَى تلادى وما جمّعتُ من نَشَبٍ ... قرعُ القوازيز أفواهُ الأباريق[1]

فقلت : هى القوارير بالراء فى المطبوعات المصرية ، وهى أفصح لأنها كلمة قرآنية . وبعد لحظة قال الأستاذ : المفرد قاقوزة ، فقلت : إذن يكون الجمع قواقيز

وبعد العودة راجعت القاموس فوجدت قاقوزة وقازوزة بمعنى واحد وهو الشربة أو القدح أو الصغير من القوارير ، وعلى ذلك يمكن أن يكون البيت رُوى بروايتين

وفائدة تاريخية

قال الأستاذ الراوى : سمعت اليوم تعليلاً أعجبنى فى تسمية شارع الموسكي ، فقد حدثنى أحد الأفاضل أنه جاء من الكلمة الفرنسية Mosquée وهى كلمة عربية الأصل معناها المسجد ، وسمي الشارع بذلك لأنه يوصل إلى المسجد الكبير وهو الجامع الأزهر

فقلت : الموسكى بفتح السين نسبة إلى مُوسَك أحد أمراء مصر فى الأيام الخوالى ، وسكنت السين للتخفيف

فضحك الأستاذ الراوى وقال : إذن كان ذلك المحدث من « الأفاضل » بالقول لا بالفعل

مروءة مصرية

رجعنا إلى القاهرة والقمر مخنوق ، والظلام يطمس المعالم بميدان باب الحديد ، ولابد من سيارة تنقل الضيوف إلى الرمالك

— تاكسى ، تاكسى ، تاكسى

هتفنا بهذه اللفظة أكثر من خمسين مرة ، فما سمع سامع ولا أجاب مجيب

ونظرت فرأيت فتًى يخترق الظلام ليستوقف سيارة فظننته خادماً يبحث لسيده عن واسطة ، أداة النقل فى لغة العراق ، ثم ظهر أنه بائع متجول أراد أن يريحنا من ذلك العناء

هل قدمنا لهذا البائع قرشاً أو نصف قرش ؟

الجواب عند السيد عبد الجبار الجلبي فقد كان فى الزاوية الثانية ، ولعله نفحه بشىء ، وإلا فأنا حاضر لمكافأته على ذلك الصنيع الجميل .

زكى مبارك

(١) كلمة « أفواه » مرفوعة لأنها فاعل المصدر وهو « قرع » ، فقد رفع الفاعل بعد إضافته إلى المفعول

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ، و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات : الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد .